



الرحلة العلمية الجزائرية قراءة في المفهوم و الدوافع

د. الأحمر قادة / أ. عطلاوي عبد الرزاق

جامعة سيدي بلعباس

ملخص

الرحلة العلمية هو ارتحال الطالب لغرض التزود من العلوم بلقاء المشيخة والعلماء، ولاكتشاف أمور علمية حتى يتم حصول كمال التعلم والمعرفة، وفيها دلالة على أهميتها وأهمية أغراضها، كما تكمن في كونها تمثل مظهرا من مظاهر الحضارة العربية و الإسلامية، فتحت الآفاق المعرفية، واستقصت العادات البشرية، واحتضنت القوافل التجارية ودونت فنون المجالس العلمية، وألغت الحدود السياسية. وسنحاول من خلال هذه الورقة البحثية أن نقف عند مفهوم الرحلة بصفة عامة والرحلة العلمية الجزائرية بصفة خاصة، مع التركيز على أهم دوافعها.

الكلمات المفتاحية: الرحلة ؛ الرحلة العلمية ؛ دوافع الرحلة.

Abstract

The scientific trip is the trip of the student for the purpose of providing science to meet teachers and scientists, And to discover scientific things until the completion of learning and knowledge. The scientific journey can be considered one of the manifestations of Arab and Islamic civilization, and we will try through this paper to stand at the concept of the trip in general and the Algerian scientific trip in particular with a focus on the most important motives.

Key words: The trip; the scientific trip; the motives of the trip

تقديم:

حفل القرآن الكريم بأمثلة عديدة لأنواع الرحلة على الرغم من عدم ورود لفظ الرحلة فيه إلا مرة واحدة، وذلك في سورة قريش، قال تعالى: ﴿لِيَلَاِفَ قُرَيْشٍ {1} إِيْلَاِفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ {2} فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ {3} الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ {4}﴾⁽¹⁾.

وقد أفردت هذه السورة بكاملها للحديث عن الرحلة، وفيها دلالة على أهميتها وأهمية أغراضها، كما تكمن في كونها تمثل مظهرا من مظاهر الحضارة العربية و الإسلامية، فتحت الآفاق المعرفية، واستقصت العادات البشرية، واحتضنت القوافل التجارية ودونت فنون المجالس العلمية، واقتحمت الحدود السياسية، ولقد استمر التفاعل والتلاقح بين المشرق والمغرب عبر التاريخ⁽²⁾، إذ كل منهما يشعر بحاجته للآخر وهو يحاول اكتشاف العالم المحيط به، في كنف الرحلات المتعددة أسبابها وحوافزها ومقاصدها وأهدافها .

1 - مفهوم الرحلة العلمية

أ- مفهوم الرحلة لغة

الرحلة في اللغة الترحيل والارتحال، بمعنى الإشخاص والإزعاج، ويقال رحل الرجل إذ سار، فالرحلة هنا بمعنى السير والضرب في الأرض، وجاءت الرحلة بمعنى الارتحال أي الانتقال من مكان لآخر، والترحل والارتحال الانتقال، وهو الرحلة، والرحلة اسم للارتحال⁽³⁾.

(1) القرآن الكريم ، سورة قريش، الآية 1-4 .

(2) محمد افرخاس ، نادية صلاح محمد صديق : رحلات المغاربة إلى المشرق ودورها في تعزيز ثقافة التواصل ، دبي الإمارات العربية المتحدة (د-ت) ، ص 02 .

(3) ابن منظور : لسان العرب، مج 1، تح: عبد الله علي الكبير، وآخرون، (د- ط) ، دار المعارف، القاهرة ، (د-ت)، ص 1609 .

وفي قاموس محيط المحيط ((رحل عن البلد يرحل رحلا ورحيلا وترحالا، شخص وسار وراحله عاونه على رحلته، وترحل القوم عن المكان انتقلوا، والرحلة النوع من الرحيل، يقال رحل فلان رحلة من لا يعود، والرحلة بالضم، الوجه الذي يقصده الراحل أو بالكسر الارتحال، يقال غدا رحلتنا أي ارتحالنا، ومكة رحلتنا أي الجهة التي نقصدها ونريد أن نرحل إليها⁽¹⁾، ومنه قوله تعالى: ﴿رَحَلَةَ الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾⁽²⁾، ورجل رحول ورحال ورحالة كثير الرحلة: ويقال (ارتحل البعير) رحلة: (سار ومضى) وقد جرى ذلك في المنطق حتى قيل: ارتحل القوم عن المكان ارتحالاً: إذا انتقلوا⁽³⁾.

وقد يرتبط مفهوم اللغة في الأصل اللغوي العربي بركوب الإبل أو الجياد ونحوهما وترويضها حتى تصير راحلة، وقد نقل ابن منظور عن أبي زيد قوله: ((أرحل الرجل البعير ... إذ أخذ بعيرا فجعله راحلة...))، ثم يضيف بن منظور: ((الراحلة من الإبل، البعير القوي على الأسفار والأحمال، وهي التي يختارها الرجل لمركبه ورحله))⁽⁴⁾.

وانطلاقاً من هذه المعاني يمكن القول أن تحقيق متعة الاكتشاف من ناحية والرغبة في مكابدة الشدائد، والتغلب عليها من ناحية أخرى، هما من الأضداد التي ينشدها الإنسان في الرحلة⁽⁵⁾.

(1) بطرس البستاني: محيط المحيط، ج3، مكتبة لبنان، بيروت، 1977، صص 367 – 368.

(2) سورة قريش: الآية 02.

(3) محمد الحسيني الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، مج16، ج29، تح: عبد الفتاح الحلو، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1997، ص 59.

(4) ابن منظور: المصدر السابق، ص 1609.

(5) سميرة أنساعد: ((صور المشرق العربي من خلال رحلات الجزائريين في العهد العثماني))، مجلة التراث العربي، العدد 97، دمشق، 2005، ص 1.

ب- مفهوم الرحلة اصطلاحاً:

يمكن تعريف الرحلة على النحو الآتي فنقول: ((انتقال واحد أو جماعة، أو عائلة أو قبيلة، أو أمة، من مكان إلى آخر لمقاصد مختلفة وأسباب متعددة، ... وإن كان انتقال رجل أو جماعة لكشف أمور علمية أو تاريخية أو جغرافية ... سميت رحلة))⁽¹⁾.

وعرف الإمام الغزالي السفر - الرحلة⁽²⁾ - بأنها: ((نوع حركة ومخالطة، أو نوع مخالطة مع زيادة تعب ومشقة - وأوضح - بأن الفوائد الباعثة على السفر لا تخلو من هرب أو طلب، وأن الإنسان لا يسافر إلا في غرض والغرض هو المحرك سواء تعلق بأمور دنيوية أو دينية لطلب العلم أو العبادة مثل الحج ونحوه))⁽³⁾.

وهناك من عدّها ((انجازاً أو فعلاً فردياً أو جماعياً لما يعنيه اختراق حاجز المسافة وإسقاط الفاصل المعين بين المكان والمكان الآخر، ويتأتى هذا الانجاز من أجل هدف معين ويجاوب هذا الهدف إرادة الإنسان وحركة الحياة على الأرض بشكل مباشر أو غير مباشر ... وقد تكون الرحلة هواية تشبع حاجة الإنسان وترضيّه، وقد تكون احترافاً يخدم حاجة الإنسان ويشبعه، ولكنها تكون في الحالتين - استجابة مباشرة لحوافز الرحلة ودوافع محددة تدعو بكل إلحاح للحركة والتنقل))⁽⁴⁾.

أما الحركة خلال الرحلة بقطع المسافات فهي السفر، وجمعه أسفار ومنه قوله تعالى: ﴿ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا ﴾⁽⁵⁾، والحركة جوهر الرحلة، وهي مكون

(1) زكريا العابد: الجزائر في العهد العثماني من خلال رحلات أوربية، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر، 2006/ 2007، ص 15.

(2) ناصر عبد الرزاق المواني: الرحلة في الأدب العربي - حتى نهاية القرن الرابع الهجري -، ط 1، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1995، ص 24.

(3) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج 6، دار الشعب، القاهرة (د.ت)، ص 1080.

(4) ناصر عبد الرزاق المواني: المرجع السابق، ص 24-25.

(5) سورة سبأ: من الآية 19.

أصيل من مكونات الإنسان لأن الحركة دليل على الحياة⁽¹⁾، كما يقول ياقوت الحموي: ((والسكون من دلائل الموت، وأن تتحرك حركة ضعيفة يؤمل أن تقوى أحب إلي من أن تسكن))⁽²⁾.

وفي إشارة لأبي الحيان التوحيدي في كتابه الإمتاع والمؤانسة قوله: ((والحركة أوضح برهان على كل موجود حسي، والسكون أقوى دليل على كل موجود عقلي))⁽³⁾.

ومما سبق يمكن اعتبار الرحلة على النحو الآتي: هي ما يحوزه المرتحل (السائر) بغية طلبه وغرضه، وقد تكون فنا أدبيا علميا تتوفر على مادة قيمة علمية وأدبية، تساهم في التاريخ والجغرافيا والأدب وعلم الاجتماع .

ب- مفهوم الرحلة العلمية :

ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تبين هذا النوع من الرحلة، وأشهر رحلة علم وردت فيه، هي رحلة موسى مع الخضر عليهما السلام ليتعلم منه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ

لَا أَبْرُحَ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ... ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾⁽⁴⁾ وحث ﷺ على الجد في طلب الرحلة والترحال لأجل العلم، فحث على زيارة مسجده الذي يعتبر بمثابة كبرى الجامعات في العالم الإسلامي يقبل إليه طلبة العلم للتزود منه فما روي عنه ﷺ حاثا على زيارته للعلم ما رواه أبو هريرة قال: ((من جاء

(1) لاناصر عبد الرزاق الموافي: المرجع السابق، ص 25.

(2) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، مج2، دار صادر ، بيروت ، 1977، ص 420.

(3) أبو حيان علي بن محمد ابن العباس التوحيدي: الإشباع والمؤانسة ، ط1، تح، محمد حسن، إسماعيل دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، 2003 ، ص 138.

(4) سورة الكهف: الآية 60-82 .

مسجدي هذا لم يأت إلا لخير يتعلمه، أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله ومن جاء لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر على متاع غيره⁽¹⁾.

فهذه الآيات و الأحاديث مثال واضح ضربه الله تعالى لبيان أثر الرحلة في طلب العلم وبيان وجوبه، وقد فهم المسلمون معنى ذلك مبكرا، فسعوا لطلبه من مكان إلى آخر مع الحرص على لقاء العلماء والأخذ عنهم⁽²⁾.

ويرى ابن خلدون أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة تزيد في اكتمال التعليم فعلى قدرة كثرة الشيوخ وتعدددهم يكون حصول ملكات التعليم ورسوخها في ذهن طالب العلم ولهذا السبب نجد أن علماء المسلمين اهتموا بها كثيرا⁽³⁾.

ومنه فإن مفهوم الرحلة العلمية هو ارتحال الطالب لغرض التزود من العلوم بلقاء المشيخة والعلماء، ولكشف أمور علمية ، حتى يتم حصول كمال التعلم والمعرفة.

2- دوافعها:

مما لا شك فيه أن التحديات التي فرضتها المتغيرات الطبيعية والبشرية والسياسية والتي أعلنت عداها السافر ضد الإنسان، ومن أجل الحياة والمعرفة انتقل وتحرك وهاجر وخاطر وخاض التجربة، وطلب التعايش مع واقع طبيعي آخر، في موطن جديد ومكان آخر ولعل أهم هذه المتغيرات والمتطلبات التي ساهمت في بروز الرحلة عموما والعلمية خصوصا يمكن طرحها على النحو الآتي:

(1) أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني (ابن ماجه): سنن ابن ماجه ، تح: بشار عواد معروف ، مج1، ج1، دار الجيل ، 1998، ص217.

(2) عواطف محمد يوسف نواف : الرحلات المغربية والأندلسية ، مطبوعات مكتبة فهد الوطنية، الرياض 1996، ص 34.

(3) عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة ، تح: عبد السلام الشدادي ، ج3، ط1، خزانه بن خلدون ، بيت الفنون والعلوم والآداب ، الدار البيضاء المغرب ، 2005، ص 226.

أ- الدافع العلمي :

تعود نشأة الرحلة في طلب العلم إلى بداية انتشار الإسلام فهي من الممارسات التي أكد عليها الدين وطالب بها أفرادها، فقد كان من المعتقد أن اكتمال العلم لا يتم إلا بالرحلة إليه⁽¹⁾ ويرى بن خلدون: ((أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة تزيد في اكتمال التعليم، فعلى قدر كثره الشيوخ وتعدددهم يكون حصول ملكات التعلم ورسوخها في ذهن طالب العلم))⁽²⁾ ولهذا السبب نجد أن علماء المسلمين اهتموا كثيرا بالرحلات العلمية .

وهناك من اعتبر الرحلة تفتّح حبّها الإسلام، أو رحلة انفتاح دعا إليه الإسلام أو رحلة تنور لحساب الإسلام، وخروج طالب العلم في هذه الرحلة وصولاً إلى مجالس العلماء يمثل دعوة مفتوحة من الله لكل الناس لكي يتدبروا ويتمعنوا، سواء كان لأجل التفقه في الدين، أو من أجل التعمق في علوم الدنيا⁽³⁾ .

أما على الصعيد الجزائري فإنه يمكن القول بأنه كان للجزائر في العصر الحديث رحلات علمية قام بها أصحابها لأغراض عدة يمكن الإشارة إليها من خلال الآتي :

1- طلب العلم والإطلاع : وذلك لغرض طلب العلم والزيارة والاطلاع والأخذ من علماء المناطق المقصودة ومن أقدم من فعل ذلك كما أشار أبو القاسم سعد الله : عاشور موسى القسنطيني⁽⁴⁾، المعروف بالفُكيرين (بضم الفاء وفتح

(1) نواف عبد العزيز : رحالة الغرب الإسلامي وصورة المشرق العربي من القرن 6هـ - 8هـ ، ط1، دار الأهل للنشر والتوزيع بيروت ، 2008 ، ص 08 . 29 .

(2) ابن خلدون : المصدر السابق ، ص 226 .

(3) صلاح الدين الشامي : الرحلة عين الجغرافيا المبصرة - في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية ، ط 2 ، منشأة المعارف للنشر ، الإسكندرية، 1999 ، ص 17 .

(4) نشأ في قسنطينة وأخذ العلم عن والده توفي والده سنة 1054هـ ، شد الرحال لطلب العلم في عدة بلدان ، توجه في آخر حياته إلى تونس ثم إلى الحجاز لأداء فريضة الحج مع أهله ليدركه الموت بها سنة 1074هـ . انظر: أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج2، ط 6 ، دار البصائر ، الجزائر ، 2009 ، ص 383 .

الكاف - وهو لقب والده) الذي كان أديبا جمّ المعارف، ذكيا شديد الفطنة والحفظ، وهو رحاله دامت رحلته عشرين سنة .

وكذا رحلة عبد الرزاق بن حمادوش الذي عاش في القرن الثاني عشر هجري 12هـ، وهي رحلة قام بها لطلب العلم والتجارة من مدينة الجزائر إلى تطوان ومكناس وفاس، ثم عاد إلى الجزائر من تطوان الذي وصف الحياة العلمية وجوانب من الحياة السياسية والاقتصادية في المغرب، وقد كان العلماء الجزائريون كثيرا ما يذهبون إلى هناك للدرس والإقامة، ونحو ذلك من الأغراض ومنهم محمد الزجاجي، الذي كان من أبرز علماء تلمسان، ورحلة الحاج بن الدين الأغواطي إلى الصحراء التي كتبها سنة (1242هـ)، والتي تعتبر غاية في الأهمية واستفاد منها الأوروبيون والأمريكيون أثناء اهتمامهم بالصحراء ومحاولة اكتشافها، حيث ترجموها إلى الفرنسية والانجليزية⁽¹⁾ .

2- الإجازات العلمية والسلوكية :

ومن العوامل كذلك ما يعرف بالإجازات العلمية والسلوكية⁽²⁾، والتي كانت من العوامل المساهمة في بروز الرحلة العلمية، نذكر على سبيل المثال منها :

إجازات الورتيلاني، حيث قدر عدد شيوخه بمصر (22) شيخا منهم المغاربة المقيمون بمصر وكذا المصريون، تحصل على إجازات من بعضهم، وكذا إجازات أبي راس الناصري العسكري، حيث تحاور وتفاوض مع علماء مصر وفي مقدمتهم ثلاثة أعمال تحصل منهم على إجازات وتقديرات خاصة، وهم السيد مرتضى أبو الفيض

(1) أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ص 85-87.

(2) الإجازة : هي وسيلة من وسائل الأخذ والتحمل ، تكون بأشكال مختلفة ، شفوية وكتابية وخاصة ، نثرية ونظمية ، لا تكتب إلا بعد استفتاء شروطها ، وقد تصدر من عامة العلماء كما قد يتساهلون في منحها لكل راغب فيها ، حتى وان لم يكن بالغا راشدا ممن ينسحب عليه شرط المعاصرة ، أملا في نشر العلم والرواية وربط الصلات بين المشرق والمغرب . أنظر : فريقي محمد الكبير: ((التواصل العلمي بين اعلام المغرب ومصر أثناء القرنين 17م و 18م) من خلال رحلات المقاربة الحجازية))، محاضرة بقسم التاريخ ، جامعة بشار، الجزائر (د.ت)، ص 03 .

محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي، وهو من أعلام اللغة والحديث ومن مؤلفاته تاج العروس، توفي (1790م) والشيخ الأمير محمد، الذي نبغ في الحديث ومختلف الفنون توفي (1818م)، ثم الإمام الشرقاوي عبد الله حجازي إمام الأزهر⁽¹⁾.

3- تبادل المصنفات والتأليف والرسائل :

اشتهر العلماء المغاربة بشراء الكتب والرسائل واقتنائها من مصر وبلاد المشرق وشملت فنون مختلفة ومنهم أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي⁽²⁾، صاحب الرحلة الناصرية حتى قيل أنه اشترى بمصر في آخر حجاته ، مائة مثقال ذهب⁽³⁾ من الكتب، ومن مكة اشترى صحيح البخاري بثلاثة وسبعين مثقال ذهبا، وكذا الحسين الورتلاني الذي احتفظ لنفسه بنسخة من رسالة التوحيد لشيخه علي البيومي الصوفي الأحمدي⁽⁴⁾.

وما نتج عن هذه الرحلات والاتصالات، أنها ساهمت في بلورة الحركة العلمية في المغرب ومنه الجزائر في الفترة الحديثة، وعادت عليها بفوائد كثيرة خاصة وأن هذه الرحلات كانت تتجه إلى عواصم الأقطار الإسلامية الشهيرة مثل: القيروان ثم جامع الزيتونة فيما بعد في تونس، والإسكندرية والقاهرة والأزهر في مصر، ومكة والمدينة في الحجاز وغيرها من مراكز الزخم العلمي آنذاك .

(1) فقيحي محمد الكبير : المرجع السابق، ص 04 .

(2) هو أبو العباس أحمد ابن عبدالله محمد بن ناصر الدرعي ، ولد سنة 1057هـ، كان ممن نصر السنة في المغرب وحبذ أعمالها وآدابها وتعصب لها تعصب الغيور المصور، له رحلة حجازية ذكر فيها من لقيه وأجازه بالمشرق ، توفي في 18 ربيع الثاني عام 1129هـ.أنظر:عبدالحكي الكتاني : فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيوخ والمسلسلات ، تح: إحسان عباس ، ط2، ج2، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، 1982، ص 677 .

(3) عبد الحكي الكتاني : المرجع السابق، ص 677.

(4) فقيحي محمد الكبير : المرجع السابق، ص 04 .

ب- الدافع الديني :

يعتبر الدافع الديني من أقوى الدوافع المحركة للرحلات العلمية، خاصة وأن بلاد المغرب عرفت جوا روحيا خاصا، حتى أصبحت المقاييس الدينية متحكمة في مختلف مناحي الحياة، وأصبح الدين حينها القاسم المشترك الذي يجمع الآراء والجهود، لاسيما وأن الحياة الدينية اتسمت بمظاهر عديدة وأشكال متنوعة في المجتمع المغربي، منها انتشار التصوف الذي كان له الأثر البالغ في الحياة الاجتماعية وقد انتشر بين عامة الناس وفضلائهم من علماء وفقهاء⁽¹⁾.

ومما يجيد الإشارة إليه أن الرحلة إلى الحجاز (مكة والمدينة) أضحت واجبا دينيا مرتبطا بفترة زمنية محددة، وتهون في سبيل تحقيقها كل التضحيات وهذا من أجل تأدية فريضة الحج، والقيام بالمناسك التي تتبعه، ولقد كان القيام بهذه الفريضة رغبة الجميع في المغرب العربي، علما بأن هذا السلوك كان مصاحبا للمجتمع المغربي الذي يضع الدين في المرتبة الأولى ضمن أولوياته⁽²⁾.

ومن الأمثلة على بعض هذه الرحلات على سبيل المثال لا الحصر في الفترة الحديثة

رحلة أبو راس الناصري⁽³⁾ إلى الحجاز التي كانت رحلته دينية علمية، وروى عند دخوله إلى أم القرى (مكة) قال: ((فاجتمعت بعلمائها وفقهائها كالعلامة الدارك

(1) نواف عبد العزيز: المرجع السابق، ص 25.

(2) نفسه، ص 26.

(3) هو محمد بن احمد بن عبد القادر بن محمد الراشدي الجليلي العسكري المعروف بأبي راس، ولد سنة 1150هـ/ 1737م مؤرخ حافظ، له مشاركة في الفقه والأدب والحديث، وغير ذلك، عرف بعلمه الواسع وكثرة حفظه حتى لقب في مصر بشيخ الإسلام، له عدة مؤلفات، أهمها فتح الإله ومنتته في التحدث بفضل رب العباد، وحاشية على الشرح الكبير، نثر المقامات الحريرية وغيرها... توفي بمعسكر سنة 1238هـ/ 1824م. أنظر: عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر - من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر -، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت،

السيد عبد المالك وكنت قرأت عليه نبذة من الحديث من الكنز، وشيئا من التفسير في سورة النور وأجازني بالباقي (....)(¹) .

كما قام الأمير عبد القادر⁽²⁾ بن محي الدين⁽³⁾ برحلته لأداء فريضة الحج والتي زار من خلالها الكثير من الحواضر العلمية الشرقية ، كتونس و الإسكندرية والشام وبغداد، وهو ما أشار إليه الأمير عبد القادر من خلال رحلته التي ألفها عند أدائه لمناسك الحج، وما تعلق بها من زيارة بعض الحواضر .

وعنها يقول الأمير عبد القادر عن رحلته ((ذكر ما انتهى إليه أمر هذا السيد (يقصد عبد القادر) بعدما بذل مجهته ، وسلك نهجته في حماية بيضة الإسلام بعد أن حصّل السياسة الأدبية بالوطن، وحاز الرياسة العلمية في كل سكن وقطن....

1980، ص ص 306-307. أنظر أيضا : أبو القاسم الحفناوي : تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة فونتانة الشرقية ، الجزائر ، 1906، ص 332.

(1) سميرة أنساعد : المرجع السابق، ص 2 .

(2) هو عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى بن محمد بن المختار ، الحسني الجزائري ، أمير مجاهد شاعر أديب عالم صوفي ولد سنة 1808م في إحدى قرى الجنوب الوهراني ، بالغرب الجزائري وتعلم بها ، أدى فريضة الحج مع والده سنة 1241هـ ، ثم زار بغداد و دمشق إلى أن عاد إلى الجزائر وبويع للقيادة والقيام بأمر الجهاد عام 1834م بعد احتلال فرنسا للجزائر ، سافر إلى دمشق عام 1271هـ واستقر بها إلى أن توفي في عام 1883م ، له مؤلفات منها ذكرى العاقل ، ورسالة في الأخلاق (المواقف) وديوان شعري . أنظر: عادل نويهض : المرجع السابق ، ص 104.

(3) هو محي الدين بن مصطفى بن محمد الحسيني الجزائري ، عالم بالفقه من الأعيان ولد سنة (1190هـ / 1779م) بالقيطنة، وتعلم بها و مستغانم ، حج ثلاث مرات مر في آخر حجاته على بغداد، أثر عنه أن له عدة كرامات ، توفي رحمه الله يوم الأحد 03 ربيع الأول 1249هـ / 1834م وهو والد الأمير عبد القادر. أنظر: عادل نويهض : المرجع السابق ، ص 114. أنظر أيضا عبد الرزاق البيطار: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، تح : محمد بهجة البيطار ، ج 3، دار صادر، بيروت ، 1991، ص 1491.

((⁽¹⁾) ويشير هنا إلى أن الأمير عبد القادر أراد أن يعرف القارئ من خلال رحلاته، أنه حاز على مكانة مكتبته وبمساعدة والده من اعتلائه أمور سياسة المسلمين الجزائريين بالغرب الجزائري، إلى أن تولى مكان أبيه لما كان يتصف به من حكمة وحلم وعلم ومعرفة بأمور الحكم والجهاد.

ومما يجدر الإشارة إليه في هذا الباب واستنادا إلى بعض التقارير الفرنسية كتقرير لوسيفاني⁽²⁾، الذي يشير أنه كان للوازع الديني أثره الواضح لدى المجتمع الجزائري كعامل مهم في الرحلة، وأنه ورغم وجود دوافع وأسباب شتى حملت الأهالي المسلمين - الجزائريين - على الهجرة لكن في نهاية المطاف يبقى الدين هو السبب الرئيسي وهذا ما يسجله حرفيا في قوله : ((وفي رأيي يجب رفض كل الأسباب التي تتعلق بسخط وتدمير الأهالي، أو أن السبب يتعلق بالظروف الاقتصادية الصعبة التي يجتازها، إن مثل هذه الاعتبارات والأسباب لا تضيف شيئا جديدا على ظاهرة الرحيل الجماعي ...، أي السبب الديني والسبب السياسي فالعرب الذين استمعت إليهم وهم يتكلمون فيما بينهم يطلقون على هذه الحركة اسم الهجرة كما هي ماثلة في مخيلتهم التاريخية، هجرة النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- من مكة إلى المدينة، كما أن الأشخاص الذين يقومون بهذه الرحلة يعرفون بالمهاجرين ، إشارة إلى ما جاء في القرآن من إتباع النبي في هجرته))⁽³⁾.

(1) عبد القادر بن محي الدين : مذكرات الأمير عبد القادر - سيرة ذاتية - تح : محمد الصغير بناتي وآخرون ، ط7، دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع ، الجزائر، 2010، ص 106.

(2) شغل منصب مدير شؤون الأهالي بعد الحرب الأولى باعتباره خبير في قضايا الأهالي والإسلام . انظر: نور الدين ثنيو : ((هجرة الجزائريين إلى المشرق العربي بين السياسة والدين 1848-1912))، سوسيولوجية الهجرة الجزائرية في تاريخ الماضي والحاضر، مداخلة ضمن أعمال ملتقى دولي، مطبوعة، جامعة قسنطينة ، 2008 ، ص 102.

(3) نور الدين ثنيو: المرجع السابق، ص 102 .

أما تقرير السيد باربيدات (Barbedette) المندوب المالي لمنطقة جيجل ، فيؤكد بدوره على أن الهجرة التلمسانية تمت لأغراض دينية وبقية الأسباب الأخرى فمجرد عوامل عارضة فرغم وجاهة الأسباب الطارئة كما يسميها ، مثل الجفاف والفقر ونقص المحاصيل وغلاء المعيشة ، إلا أنه في نهاية المطاف يبقى السبب الوجيه والقار، هو الشعور الديني المشترك بين جميع سكان العالم الإسلامي، فكل أجزاءه تتلاحم وتنجذب نحو مركز الخلافة الإسلامية، ويقول صاحب التقرير: ((إن الواجب القرآني يمنح قوة هائلة للجان الإسلامية القائمة في القسطنطينية، التي تحصل الدعم مادي والمعنوي من الحكومة العثمانية بقصد تسيير سبيل الهجرة))⁽¹⁾ .

في الأخير إن ما يمكن أن نستنتجه من هذه التقارير هو أن الرحلة الجزائرية كانت تتم في عمومها لأغراض دينية تدرج ضمنها المبررات العلمية مما يضيفي على هذه الرحلات الصبغة الدينية العلمية ويمكن القول أن الرحلة العلمية شكلت تقليدا مهما في الثقافة الجزائرية الحديثة والمعاصرة.

(1) نفسه، ص 102 .